سورة الزمر

obeikandl.com

﴿ سورة الزمر ﴾

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ۝٦ ﴾

أى أخرج الكثرة والتعدد من الوحدة، حيث أنه سبحانه جعل آدم الإنسان الكامل الواحد الذى خرجت عنه الكثرة والتعدد، حيث أن ذلك الكامل ــ أى الإنسان ــ هو الذى تمت فيه دورة التخلق بالأسماء والصفات الإلهية، وهو الواحد الفرد الذى انبثقت عنه الكثرة، قال ﷺ: ((**إن الله خلق آدم على صورته**)) ثم مثل الحق سبحانه ذلك بانبثاق حواء عن آدم، فكانت مصدر الإثنينية الذى عدد الواحد فأظهره إلى الكثرة.

﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ۝٧ ﴾

به، لأن ذلك منافٍ للإيمان به فكيف يرضى سبحانه للأعيان أن تكفر به؟

ولكن لما تحقق سبحانه وتعالى من فساد الطينة علم أنها لن تؤمن به لتسافل معدنها، فعقد لها منازل الامتحان وأقام لها حلبة الاختبار، فسمع منها ﴿ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا ﴾.

ولكن ههنا نكتة ربانية ونادرة أزلية وهو أن الحق سبحانه يعطى القوة التنفيذية لتلك العين، لكونها عينا عدمية لا تملك القوة الأصلية المولدة للفعل، وهذه القوة الأصلية هى المعبر عنها عندنا بالقدرة، فإنه سبحانه يمد المؤمن والكافر ساعة تولد القدرة فيهما، قال سبحانه:﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ ﴾.

واعلم أن مجرد إعطاء القدرة المنفذة والمخرجة للفعل ــ أى للعين الكافرة ــ فإن ذلك لا يعنى رضاء الحق سبحانه لعباده أن يكفروا به، وإنما أعطت الألوهية القدرة الصرفة وألقتها مجردة فى طريق المؤمن والكافرة لترى ماذا سيفعلان بها، ولكى يتحقق العقاب والثواب فى الأعيان، وهذا مثاله كالأب الذى ورّث مالاً لأولاده ومات، فهذا فعل به ما يصلحه وذاك فعل به ما يفسده، فهل للأب ذنب فى كونه ورث المال المجرد لهذا وذاك ؟

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۝٧ ﴾

أى لا يتحمل أحد ذنب أحد، ولا يتحمل ولد ذنب أبيه، وفى ذلك وردت عجائب عن الألوهية، فربما تولد من ظهر العالم فاسق، وربما تولد من ظهر الفاسق عالم، وربما تولد من ظهر النبى كافر، وربما تولد من ظهر الكافر نبى، ولا يؤثر إيمان هذا فى كفر هذا، ولا يؤثر كفر هذا فى إيمان هذا .

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٩ ﴾

أى هل يستوى من تعرف علينا ودخل حضرتنا وصار منا وصرنا منه، بمن أدبر عنا وأبى أن يتعرف علينا ولم يدخل حضرتنا وأعرض عنا ؟

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ ۝١٠ ﴾

فتتركوا البلاد التى فيها مزاحمات لقلوبكم، لأجل ألا تنشغلوا عنا بغيرنا، فلذلك قيل لهم: ﴿ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ﴾، فإن العارف يكره من ينازعه فى قلبه ولو كان فى أحب البلاد إليه، وهذا حال رسول الله ﷺ عندما ترك مكة وهى أحب بلاد الله إلى قلبه وهاجر منها لكثرة الحجب فيها والانشغال بغير الله عز وجل وطلب هو وأصحابه بلاداً جديدة لا ينشغلون فيها بغير الله عز وجل، حيث أنهم رأوا فى تلك البلاد الجديدة صلاح ذواتهم أكثر مما وجدوه هناك .

﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ ﴾

وهؤلاء هم الكمل من المقربين، أقصد السابقين من القوم، فإنهم اختاروا الطريق الأوعر، وتشبثوا بالصراط الأصعب، لما فيه غلظة على النفس القاسية حتى خلصوها مما لحق بها من ظلمات الأغيار وصدأ الأكوان فهؤلاء حتى يتبعوا من القول أحسنه، لا بد لهم أن يتبعوا من القول والعمل أصعبه، فإن العارف لن يحسن إلى نفسه إلا إذا مر بها فى أطوار صعبة قاسية، وهذا كمن حرم على نفسه أكل اللحم عشرة أعوام لأنه سرق فى البلد التى هو فيها ماشية، وعلم أن أقصى عمر الماشية هو عشرة أعوام فظل تلك المدة لا يأكل اللحم.

وهذا كمن حرم على نفسه أكل عسل النحل بحجة أن النحل يرعى فى حقول الناس، وماذا يأخذ النحل من حقول الناس؟

أقول: ومن ينكر هذا على العارف، فإنه ينكر ذلك على سيد الخلق ﷺ، فإنه فعل بنفسه أقسى من ذلك وأصعب فهو الذى نام على الحصير حتى أثرت فى جنبه .

وهو الذى كانت تمر عليه الأشهر الطوال ولا يوقد فى بيته نار ـــ أى لا يطبخ أهله.

وهو الذى كان يربط الحجر على بطنه .

وهو الذى كان يطوى الأيام بلا طعام ولا شراب .

وهو الذى رفض أن يجمع بين طعامين بين يديه .

وهو الذى كان يأكل الخل فقط .

وهو الذى مات وليس عنده ما يورث كالناس .

وهو الذى قام حتى تورمت قدماه .

﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ﴿٢٢﴾ ﴾

ولم يقل فويل للقاسية قلوبهم من الله وإنما قال: فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله، وإنما كان المقام الأنسب أن يكون لهم الويل من ذكر الله نائباً عن الخالق، فأعلمهم الحق سبحانه أنه أوجد لهم مخلوقا من قلبه يتكفل بهم، ألا وهو عذاب الذكر، أما المذكور فلا قبل لهم به.

واعلم أن السائل قد يستغرب ويقول: كيف يكون لهؤلاء ويل من الذكر، مع العلم أن الذكر فيه لطف ورقة ؟

والجواب على ذلك: أن تلك القسوة تزداد يوماً فيوماً حتى لا يعمل فيها الذكر شيئاً من الليونة والرقة، ومثال ذلك كالغصن الأخضر إذا احترق وصار أسوداً، هل تراه يرجع إلى خضرته ونضارته مرة أخرى ؟

ثم إذا اقترب الذكر من تلك الروح السوداء القاسية ـــ وذلك عندما يذكر القاسى ربه ـــ وأراد إرجاعها إلى موطنها الأول صار بمثابة العذاب الأليم لها، حيث تحن إلى وطنها الأول ثم ترى أنه لا سبيل لها

إلى الرجوع إلى ذلك الوطن الأول لما آلت إليه من قسوة وظلمة، فذلك تأويل قوله سبحانه ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾.

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا ﴿٢٣﴾ ﴾

على أهل الغفلة والحجاب، مفسراً وموضحاً ذلك التشابه للسادة العارفين بربهم.

وفى ذلك يقول الإمام على كرم الله وجهه: لو شئت أن أفسر لكم النقطة التى تحت الباء وقر سبعين بعيراً لفعلت ذلك.

ويقول سيدى إبراهيم الدسوقى ﷺ: لو شئت أن أشرح لكم النقطة التى تحت الباء لاهتزت أفئدة العارفين .

واعلم رحمك الله أن العارف لا متشابه عنده ــ أقصد الإنسان الكامل ــ النائب عن الله، وكذلك الأفراد فإنهم أعظم معرفة بالله من القطب، ولهم من العلوم والمعارف ما هو مستغرب لا يخرج لهم إلا من حضرة النوادر والاختصاص، فإن للعارفين علوماً غريبة، يستخرجونها من خزائن الفردانية، لا تخرج إلا لسواهم .

واعلم حققك الله بعلومه الغريبة وبنوادره الطريفة أن متشابه الحق لا نهاية لتأويله فى أفئدة الراسخين، فيخرج أحدهم من تلك الحضرة بخلاف ما خرج به غيره، فإن تجليات الحق فى أفئدة العارفين محرم عليها أن تتشابه، وإلا لدل ذلك على عجزه سبحانه، وكما قال شيخنا ابن عربى ﷺ فى الفتوحات: إن الحق سبحانه لا يتجلى بتجليين متشابهين فى الوجود، وإن ذلك مستحيل فى حقه سبحانه.

ولذلك قال الحق سبحانه عن تلك الحقيقة: ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ ﴾ أى بذلك الوجه الذى كشف لنا من حقيقة المتشابه

وكذلك آمنا بالوجوه الأخرى التى كشفت لغيرنا من العارفين ولم نطلع عليها ولذلك قالوا: ﴿ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾: أى أن كل الوجوه سواء التى كشفت لنا ولغيرنا هى من عند ربنا، فإن وجوه المتشابه الباطنية بحر لا ساحل له، وهى دالة على عدم انتهاء علم الله عز وجل .

﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴿٢٣﴾ ﴾

وقت تجلى الجلال والقهر ثم .

﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴿٢٣﴾ ﴾

وقت تجلى الجمال واللطف .

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ ﴿٣٠﴾ ﴾

بالمجاهدة أنت وأهل المجاهدة من العارفين من أمتك، فإن هؤلاء أماتوا النفوس بمجاهدة النفس حتى انكشف لهم العالم الأكبر، وهو المشار إليه فى الحديث الشريف بالجهاد الأكبر، حيث قال ﷺ:

((رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر))

﴿ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

أى أهل الحجاب بالموت الجسمانى، وهو المعبر عنه عند الناس بالموت الطبيعى، فهؤلاء أى أهل الحجاب لا ينكشف لهم العالم الأكبر إلا بالموت الطبيعى وذلك لأنهم هجروا مجاهدة النفس، وقد عبر عن ذلك الحق بقوله: ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ .

﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

حقيقة إطلاقية لا تنتهى عجائبها، ولا تخمد سطور نواميسها، فهم فى المشيئة قائمون، قد أشركهم معه فى مشيئته فأطلقها لهم، ينهلون

منها ما يشاءون، ويأخذون منها ويردون، فسبحان من أشرك الحدث مع المحدث فى المشيئة.

﴿ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ ﴿٣٥﴾ ﴾

هى بشارة لمن لم يدخل معهم بأن يراجع نفسه فى الدخول، حتى يتم له تكفير أسوأ ما عمل .

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴿٣٦﴾ ﴾

وهذا قيل له قبل إتمام مقام العصمة الكامل لـه ﷺ، حيث قيل له من الحضرة الإلهية: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ فإنه ﷺ تدرج فى العصمة حتى حل فى المقام الكامل فيها اعلم أنه يستحيل فى حقه ﷺ أن يخاف من الذين من دونه، فإن من خاف الله هان عنده كل شئ فى الوجود، ومن هاب الله هابه كل شئ فى الوجود .

واعلم أن علم التدرج سارٍ فى حق مجموع الأعيان الإلهية، وإنما حدث التدرج لحكمة إلهية جليلة .

وقد جعل الحق سبحانه التدرج فى حق نفسه ــ لأجل الأعيان ــ قال سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ .

واعلم أن الألوهية فى حق نفسها لا تعرف التدرج قال سبحانه: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ وكن هى النقطة ــ العين ــ التى تذوب فيها الأعداد، ولا تعرف فى ذلك الوطن أعداد.

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ

﴿ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾

لكون الوسع الإطلاقى يسع كل الذنوب ما خلا الشرك، وهو قوله سبحانه: ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾.

فالأشياء كلها داخلة بما اقترفته من معاصٍ فى ذلك الوسع الإلهى الذى رحم به الكل منذ الأزل الأول، فلابد من الرحمة العامة، وإلا فأين يرتاح الوجود بأعبائه إلا فى حصن الرحمانية، وإلا لصار الكل فى قهر دائم متصل، لا تدوم به حياة أبدا.

واعلم أنه لولا رحمته والتى لا يدخل على الألوهية شئ سواها، لما استقام شئ بجوار أسماء القهر الإلهى، فإن الذى يرد القهر الإلهى هو رحمانية الحق.

﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

أى لن يستطيع الحدث تخيل الأرض وهى فى قبضة الجبار وتخيل السموات وهى تطوى بيمين الحق سبحانه وتعالى عما يشركون ولا قبضة له ولا يمين، إذ ليس كمثله شئ، وحاشاه سبحانه من أن تصيبه أوهام الحدث ولا أن تصل إليه ظنون العقل ولا أن تتسلق إليه خيالات الأوهام.

فكل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك، إذ لو تشابهت الربوبية بالحدث لفسدت، ولو حكم المخلوق على الخالق لانهارت الألوهية،

فليس فى الحدث شئ من القديم حتى يحكم عليه، وهذا الحدث الفانى ما كان يصح أن يحكم على المحدث القديم.

ولا يصح لمن سيفنى وسيتحول إلى تراب أن يحكم على الباقى الحى الذى لا تغيره الدهور ولا تفنيه يد الحدثان .

ولا يصح لمن يتحول الطعام الغض الطازج فى معدته إلى عذرة عفنة، يتأنف منها ويستنكرها وهو يتبرزها فى المرحاض أن يحكم على المحدث القديم .

ولا يصح لمن لا يعرف ما تحت رجله من خفايا الأرض بشبر أن يحيط علماً بالمحدث القديم .

ولا يصح لمن يحكمه عقله القاصر وترفعه وتخفضه الأوهام والظنون أن يحيط علماً بالمحدث القديم .

ولا يصح لمن يغلبه النوم والجوع والعطش وتتحكم فيه شهوة الفرج أن يحكم على المفرد القديم .

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ۝ ﴾

اعلم أن هذه الآية فيها نكتة لطيفة، وهى أن خلق السموات والأرض تم فى ستة أيام بينما إزالتهما تمت بكلمة كن اللحظية، التى لا تعرف الوقت ولا الزمان .

قلت: وفيه إثبات أنه سبحانه كان قادراً على خلقهما بكن وهو قوله سبحانه: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾، ولكن فيه إشارة للعارف أن البناء صعب وأن الهدم سهل وهو أدب علوى تعلمه الحضرة الإلهية لأهل المعرفة، لكى يتعرفه منهم العوام .

﴿ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴿٦٨﴾ ﴾

اعلم أيدك الله بنور منه أن مقتضيات الربوبية لا يصيبها الموت والتلف، وهى خارجة عن قوله سبحانه: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ فإن مقتضيات الألوهية ليست من جملة كلية هذه الأشياء، ولا تندرج فيها. وهذه المقتضيات هى ثمانية .

الأول: العرش وحملته .

الثاني: الكرسى .

الثالث: الجنة .

الرابع: النار .

الخامس:اللوح .

السادس: القلم.

السابع: الروح .

الثامن: البرزخ .

واعلم أن اختصاصات ومقتضيات الملك اللازمة لأبهته والخاصة بألوهيته لا ينبغى لها الهلاك والتلف، بل كانت هذه المقتضيات للذات الصرف منذ عالم الأزل الأول، حيث لم يكن معه هناك من هذه المقتضيات سوى العرش بنص الحديث الورد **((كان الله ولا شئ معه وكان عرشه على الماء))**، ثم إنه سبحانه وتعالى ابتدأ بخلق القلم وأمره بالكتابة، فكان لزاماً أن يخلق له لوحاً ليكتب فيه فكتب فيه كل ما هو كائن وسيكون، ثم خلق الكرسى ليجعل فيه الوسع والتوسع الوجودى للسموات والأرض ولكى يسع الجنة والنار، ثم أوجد الجنة والنار، ثم اختتم الظهور الإلهى بالإنسان وكرمه بنفخ روحه، وأمره

obeikandl.com

بأن يسكن الجنة هو وزوجه، فجاء فوجد الجنة مخلوقة قبله فدخلها هو وحواء. ثم خلق الله برزخاً لأجل أن تسكنه كل روح تموت، فالعرش أول المخلوقات وآدم آخرها، واعلم أن هذه المقتضيات الثمانية كلها مخلوقة سوى الروح، لكونه مختصاً باسمه تعالى الحى، فإن الروح خاص بالجناب الإلهى، ويستحيل فى حقه الموت .

﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

اعلم أن هذه الآية دليل واضح على تمام قدرته سبحانه من أنه كان قادراً على خلق السموات والأرض بكلمة كن اللحظية، وذلك لأنه سبحانه يحيى الوجود مرة ثانية ــ فى النفخه الثانية ــ بكلمة كن، التى تلغى الوقت والزمان والتدرج .

﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴿٦٩﴾ ﴾

أى أشرقت بزوال الظلام والظلم الذى كان يدنسها حين كان أهل الأرض موجودين على ظهرها، فلم يطهرها سوى ظهور نور الجبار على ظهرها، الذى ظهر لأجل إقامة الميزان والعدل وإعطاء الحقوق لأصحابها، وهذا الظلام والظلم الذى فى الأرض هو ما خافته الملائكة من أن يظهر على الأرض بسبب هذا النوع الإنسانى فقالت للحق: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾.

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ﴿٧٣﴾ ﴾

أى بحسب دراجاتهم ومقاماتهم عند الله .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ

عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ ﴿٣٢﴾

أى استوت فيكم أنوار المعرفة بالله .

obeikandl.com